الشعر الصوفي في السودان الطريقة القادرية العركية أنموذجاً

دراسة تحليلية أدبية

ميرغني حمد ميرغني حمد[1] وصلاح التوم إبراهيم محمد[2]

1- قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة كسلا، السودان

2- باحث بمركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر، السودان

البريد الإلكتروني للباحث المرسل: merganihamad33@gmail.com

مستخلص الدراسة

تهدف الدراسة إلى التعرف على أبرز موضوعات وأغراض شعر الطريقة القادرية العركية، بالإضافة إلى التعرف على مكنونات الشعر الصوفي الإسلامي في السودان. تأتي أهمية الدراسة في أنها تسلط الضوء على الشعر الصوفي في السودان، ولا سيما شعر الطريقة القادرية العركية. اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، بجانب المنهج التاريخي. توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج أبرزها: أن الأشعار الدينية للطريقة القادرية العركية تشغل الحيز الأعظم من ركن الشعر الصوفي، وأن شعر الطريقة القادرية في السودان زاخر بفنون وأغراض الشعر الصوفي الإسلامي كالمحبة الإلهية، والمديح النبوي، ومدح الشيوخ، وشعر التوسلات والابتهالات، أوصت الدراسة بضرورة الاهتمام بالشعر الصوفي الإسلامي السوداني لمختلف الطرق الصوفية في السودان.

الكلمات المفتاحية: الشعر الصوفي؛ الطريقة القادرية العركية؛ التصوف

The Qadiriyya Arakia is A model Sufi Poetry in Sudan
Literary Analytical Study

Mergni Hamad Mergni Hamad[1] and Salah Al-Toum Ibrahim Mohammed

1- Department of Arabic Language, Faculty of Education, University of Kassala, Sudan

2- Researcher at the Red Sea Basin Countries Research and Studies Center, Sudan

Corresponding author email: merganihamad33@gmail.com

Abstract

This study aims to identify the most prominent topics and purposes of Qadiriyya al-Arkiya Poetry. In addition to know the content of the Islamic Sufi's poetry in Sudan. The importance of the study lies in the fact that it sheds light on Sufi poetry in Sudan, especially the poetry of the Qadiriyya al-Arkiya. The study followed the descriptive analytical method in addition to the historical method. The study has come out with a number of results, the most important of which are: The poetry of the Qadiriyya al-Arkiya in Sudan is full of themes of Islamic Sufi poetry, such as divine love, prophetic praise, praise of the sheikhs and poetry of supplications. The study recommended the need to pay attention to studying Islamic Sufi poetry in Sudan.

Key words: Mysticism; Sufi poetry; The Qadiriyya Arkiya method

1- مقدمة

إنّ الشعر الصوفيّ قد واكب التصوّف في تطوره، فحين كان التصوّف في بدايته يتضمن مفاهيم زهديّة أخلاقيّة وَعْظِيّة، كانت الأشعار تتمحور حول الزهد في الدنيا وأحوالها، والعكوف على الخلوة ومحبّة الله. فالتصوف في الشعر يعني التصوف بمعناه العام، من حيث هو تجربة روحية تحدد موقف البشر من الوجود والحياة،، وهو بهذه الصورة ظاهرة إنسانية عامة، فللتصوف الإسلامي أثره حتى في شعر غير العرب، فهيجل - مثلا – يرى: أن ظاهرة فقدان الشعور بالأنا، نابعة من التصوف الإسلامي. فهو يقول: إن الشاعر المسلم الصوفي إذ يسعى إلى استشفاف الله في الكائنات يتخلى عن أناه الخاصة، وهذا ما يعود عليه بالبهجة والسعادة الروحية، فهو يعزف عن ذاته، ليستغرق في الأزل والمطلق (هيجل، 2023). إذن فبين التصوف والأدب بعامة، والشعر بخاصة، وشائج قربى تتمثل في أن كلا منها يحيل على العاطفة والوجدان والغموض، والشعور الكامل بالتحرر من كافة القيود التي تشعر الإنسان بعبوديته، وحين يصل الصوفي إلى درجة الفناء، فهو كالشاعر في حالة الإلهام. وفي هذه الدراسة يتناول الباحثان موضوع التصوف في شعر الطريقة القادرية العركية، فالقارئ للشِعر الصوفي السوداني عامة وشعر الطريقة القادرية العركية على وجه خاص يندهش في جمال لغته وطريقة نظمه وتنوُّع أساليبه، فإنّ لغة التصوُّف في جماليتها المُميَّزة لها، تخلق وِحدة فنيّة، ومن ثم شعوريّة، وفكريّة، ترتفع بالمشاعِر.

2- أسباب اختيار الموضوع

1- بيان إبداعات شعراء الطريقة القادرية العركية وفنونهم الشعرية.

2- الرغبة الصادقة في دراسة مكنونات جواهر الشعر الصوفي لما يتمتع به من مكانة روحية سامية.

3- أسئلة الدراسة

1- ما هو التصوف في اللغة والاصطلاح ؟

2- ما هو الأدب الصوفي وأهميته؟

3- ما هي الطريقة القادرية العركية في السودان، ومن هم علماؤها، وما أغراض شعرهم وسماته؟

4- ما هو أثر الشعر القادري العركي على الأدب السوداني الحديث؟

4- أهمية الدراسة

1- التعرف على الشعر الصوفي في السودان، ولا سيما شعر الطريقة القادرية العركية.

2- ندرة البحوث والدراسات التي تناولت موضوع التصوف في شعر الطريقة القادرية العركية.

5- أهداف الدراسة

1. التعرف على مفهوم التصوف في اللغة والاصطلاح.
2. التعرف على أبرز موضوعات وأغراض شعر الطريقة القادرية العركية .
3. التعرف على الشعر الصوفي القادري العركي ودوره في نشر الإسلام .
4. التعريف بجزء من الأدب الصوفي السوداني .

6- منهجية الدراسة

اتبعت الدراسة المنهج الوصفي والمنهج التحليلي ، بجانب المنهج التاريخي.

7- الإطار النظري

1.7 مفهوم التَّصَوُّف في اللُّغة والاصطلاح

التصوف في اللغة : ورد مفهوم التصوف في معاجم اللغة تحت مادة "صوف" على عدة معان منها إطلاق كلمة صوف على الصوف المعروف من شعر الحيوانات ،قال الله تعالي: "وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ" النحل، 8. جاء في لسان العرب في مادة صوف، الصوف: للضأن، والجمع أصواف، وقد يقال الصوف للواحدة على تسمية الطائفة باسم الجميع، ويقال لواحدة الصوف: صوفة ويصغر: صويفة وكبش أصوف : كثير الصوف (ابن منظور، 1993). وورد في معجم المعاني، تصوَّفَ يتصوَّف، تصوُّفًا، فهو مُتصوِّف، تصوَّف الشَّخصُ: صار صُوفيًّا واتبَّع سُلوكَ الصُّوفيّة وحالاتهم. تَصَوَّفَ الرَّجُلُ: لَبِسَ الصُّوفَ. صَوِفَ الْحَيَوَانُ: كَثُرَ صُوفُهُ. وفي مختار الصحاح: صوف: الصوف للشاة، وصوفة أخص منه (الرازي، 1973). وجاء في المعجم الوجيز: صوف، الكبش صوْفاً كثر صوفه، فهو أصوف؛ التصوف: طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل. والصوفي: من يتبع طريقة التصوف. والصوفية: جماعة المتصوفين (مجمع اللغة العربية، 2003) .

فإنّ الباحث عن جذر التصوف في اللغة العربية سوف يجد أنّ الجذر هو "صوف"، فالكلمة قد تكون آتية من الصوف الذي هو ما يكسو ظهر الضّأن ونحوه، غير أنّ الإمام القشيري -وهو من أئمّة الصوفية الكبار- يرى أنّ لفظة الصوفية والتصوف مولّدة وغير مشتقّة من أيّ جذر من اللغة العربيّة؛ فهي إذًا لفظة تدلّ عليهم وعلى الصوفية واصطلحوا على التسمّي بها(القشيري، 2007)، وفي هذا المعنى يقول الشاعر(الهروي، د.ت):

لَيْسَ التّصوفُ لِبْسَ الصّوفِ تَرْقَعه ولا بُكاؤكَ إنّ غـَنّى المُغَنونا

وَلا صِياحٌ وَلا رَقْصٌ وَلا طَـرَبٌ ولا اخْتباط كأنْ قَد صِرْتَ مَجْنُونا

بَلِ التّصَوفُ أنْ تَصْفُو بِلا كَدرٍ وتَتبْعُ الحَقَّ والقرآنَ والدّينا

وأنْ تُـرَى خَاشـعاً للهِ مُكْتئباً عَلى ذُنوبِكَ طُول الدّهرِ مَحْزُونا

إلا أنّ ابن خلدون يرى أنّ لفظة الصوفية إن كانت مشتقّة من اللغة العربية، فهي من لبس الصوف الذي اشتُهر به أهل هذا الطريق ومعناه الابتعاد عن زينة الدنيا في ظل إقبال الناس عليها(ابن خلدون، 1993)، وقال ابن خلدون في هذا الصدد: والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه، فما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف. فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال إلى العبادة، واختصوا بمآخذ مدركة لهم (ابن خلدون، 1993).

والراجح أنّ الأصل الذي اشتُقَّت منه كَلمة (التَّصَوُّفِ) أو كلمة (صوفيّ)، لم يُعرف له مصدر محدَّد من قِبل العلماء وأكثرِ الباحثين، سواء منَ الصُّوفيَّة أو من غيرِهم، ولكنَّهم ذَكروا عدةَ احتمالات لتحديد الشيءِ الذي اشتُقَّت منه (البقالي، 2020):

الأوَّل: أنَّ كَلمةَ التَّصَوُّفِ نسبة إلى الصَّفاء.

الثَّاني: أنَّها مَنسوبة إلى الصُّفَّة؛ نسبة إلى أهل الصُّفَّة الذين كانوا يقعُدون في مُؤَخرة مسجد رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم .

الثَّالث: أنَّ التَّصوُّف نسبة إلى رجل يُقال له صوفة، واسمه العَونيُّ بنُ مُرٍّ، وإنَّما سُمِّي صوفة؛ لأنَّ أمَّه نذَرت لئن عاش لتُعَلِّقنَ برأسه صوفة ولتجعلنَّه ربيط الكعبة، فكان أوَّل مَن تفرَّد بخدمة بيت الله الحرام، وانتسب إليه قَوم في الجاهليَّة فسُمُّوا صوفيَّة، وقد انقَطعوا إلى الله عَزَّ وجَلَّ وقَطنوا الكعبةَ، فمَن تشَبَّه بهم فهم الصُّوفيَّة.

الرّابع: أن نسبة هذه الكلمة إلى الصُّوف، وقد ذَهب إلى ذلك ابن فارِس، وابن تيميَّة، وابن خلدونَ.

السَّادس: أن تكون مشتقة من كلمة "صوفيا" SOFIA اليونانية التي تعني الحكمة .

السَّابع: أن الصوفي سمي صوفياً لأنه كالشعرة هين لين هاوي؛ فهو منسوب إلى صوفة القفا وهي الشعرات النابتة من مؤخر العنق.

نلاحظ أن اشتقاق كلمة التصوف من الصوف هي أقرب دلالة اشتقاقية لأنهم في أول أمرهم كانت هذه الفرقة تلبس الصوف اخشيشانا وزهداً، كما أن "الصوفية" كانت ترتكن في أول أمرها على أساس إسلامي، فقد تميزت مرحلة بداية القرن الثاني الهجري بشيوع فكرة التقشف في الدنيا لطلب التقرب من الله تعالى، قال علقمة بن مرشد : "والله لقد أدركت سبعين بدريا أكثر لباسهم الصوف (أبو نعيم، 1997).

أمّا عن التصوف في الاصطلاح، فقد ذكر أحمد بن زروق في كتابه "قواعد التصوف"، أن تعريفات التصوف قد تصل إلى ألفي تعريف، وأنّ تعددها ناجم عن تعدد وتنوع التجارب الصوفية التي عاشها المتصوفة (زروق، 2005). ومن هذه الأقوال والتعريفات: قول ابن خلدون في تعريف التصوف: هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل علية الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة (ابن خلدون، 1993). وذكر ابن خلدون في مقدمته أيضاً: وهذا العلم . يعني التصوف . من العلوم الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها (ابن خلدون، 1993). وعرفه الجرجاني بأنه: هو علم القلوب الذي يبحث في أحوال النفس الباطنة، ويسعى إلى تصفية القلوب والطهر والتجرد ، ويؤدي إلى الاتصال بالعالم العلوي (الجرجاني، 1938). ويقول الشيخ أحمد بن زروق في كتاب "قواعد التصوف قاعدة 13": التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام والأصول وعلم التوحيد لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان كالطب لحفظ الأبدان وكالنحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك (زروق، 2005).

نلاحظ أنّ التصوف يتجلى بوضوح بأنه علم جليل عظيم وكله نابع من مشكاة النبوة وتعاليمها فهو تارة يأتي بمعنى الزهد وتارة بمعنى الأخلاق وتارة بمعنى الصفاء وتارة بمعنى المجاهدة وتارة بمعنى الاستقامة والالتزام بالشريعة

وتارة بمعنى التسليم وتارة بمعنى الإخلاص وتارة بمعنى ترك التكلف وكل هذه تتجلى بمعنى واحد وتدور حول مراد واحد وهو تزكية النفس .

ويرى الباحثان أنّ معاني التصوف الاصطلاحية رغم كثرتها، إلا أنها كلّها تدور حول مفهوم واحد هو: أنّه طريقة لعبادة الله -سبحانه- قوامها الخروج من الملذات والتلبّس بأخلاق الإسلام التي كان عليها النبي -عليه الصلاة والسلام- وصحابته رضي الله عنهم، والأخذ بجوهر الشريعة الإسلامية وحقيقتها، ومن ذلك ما قاله معروف الكرخي: "التصوّف الأخذ بالحقائق واليأس ممّا في أيدي الخلائق". وعن التصوف الإسلامي يقول الشيخ عبدالرحمن عبدالعزيز(الزكوي، 1961): إنّ التّصَوفَ بِالإسْلَامِ مَوْصُولٌ حَقِيقة إنّهُ زُهْدٌ وَتَبْتِيل

فَلا انْفَكاك لَهُ عَنْ دِيْنِنَا أبَداً مَهْمَا تُقاومَه مِنْ قَوم أبَاطِيل

فَإنّهُ الشّرْحُ للإحْسَانِ حَيْثُ أتَى مِنِ النّبيّ حَديثٌ عَنه مَنْقُول

إنّ التّصَوفَ صَابُونٌ وَتَزْكيةٌ لِلْقلبِ ثُمّ لِهَذا الدّينِ تَجْمِيل

2.7 أهميّة التَّصَوُّف

ثمرة التصوف عند علماء المسلمين، تهذيب النفوس، وترسيخ المعارف الإيمانية والتحلي بالآداب الإنسانية، ذلك أن أصول هذا العلم -كما قال سهل بن عبد الله – مبنية على ستة أشياء : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق (زروق، 2005). ولهذه الدعائم الستة آثار بارزة في سلوك الطريق الأمثل بالنسبة للفرد والمجتمع؛ فالتمسك بالكتاب والسنة والاعتصام بحبلهما وأداء الحقوق وكف الأذى عوامل أساسية في وحدة الكلمة ونبذ التطرف، قال الله تبارك وتعالى: "وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ" آل عمران، 103. قال رسول الله ﷺ كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة، ﷺ، أنّ رسول الله ﷺ قال: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا" (البخاري، 1981). ويرى أحمد بن زروق الفاسي في كتابه " قواعد التصوف"، أنّ أهمية التصوف تتلخص في النقاط التالية: (زروق، 2005).

أولاً: إن التصوف هو السبيل الوحيد لتخليص الأمة مما تتخبط فيه من أزمات فكرية وعقدية ، وعن طريق التصوف يمكن للأمة الرجوع إلى التعاليم السمحة لشريعة الإسلام والمحبة والسلام ، لأن التصوف يُعد جامعة شعبية تجمع مكونات الثقافة الإسلامية، ومختلف شرائح المجتمع الإسلامي.

ثانياً: إن التصوف يمثل الحياة الروحية للديانات السماوية، ويجسد حقيقة التدين الصحيح الذي يحرك الإنسان في دائرة الفعل المسئول، فلا حقد، ولا عداء، ولا حسد، ولا بغضاء، ولا كراهية، ولا إسفاف بحق الألوهية والربوبية، ولا تطاول على حقوق المخلوقين والعباد، فالتصوف هو الموصل للعبد الصادق إلى حضرة علام الغيوب، والمبلغ إلى مالك الملوك، وهو الجسر الذي يعين الإنسان على التعايش السلمي مع أخيه الإنسان، وييسر له أسباب الالتقاء والمقام الأمين.

ثالثا: إن التصوف يقدم للإنسان حلولاً عملية تساعده على ترويض نفسه، وتهذيب أخلاقه، وتخليص ذاته من الأنانيات المفرطة، ويعطي أملا في تهيئة الأنفاس والحواس الباطنية والظاهرة للإقبال على الله عز وجل.

3.7 الشعر الصوفي في السودان

منشأ الشعر الصوفي الأوّل معروف يرجع إلى عهد رسول الله ﷺ، ولا سيما فن المديح، فقد أثبتت كتب السيرة مدح أبي طالب وأبي بكر وكعب بن زهير وحسان بن ثابت وغيرهم للرسول الكريم، وهو شاهد وأقرهم عليه بل وأثابهم عليه، كما ورد في إهدائه لبردته لكعب بن زهير لما قرأ عليه قصيدته المعروفة (كعب، 1989):

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْم مَتْبُولٌ مُتَيّمٌ إثْرهَا لَم يَجْزِ مَكْبُول

وكيف أنّ هذه البردة اشتراها بعد ذلك بعشرات السنين خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان بعشرات الآلاف من الدنانير الذهبية، ثم أوصى من بعد أن تجعل في كفنه وتدفن معه .

وكل فن يبدأ في منشئه الأوّل متعثراً ثم ينهض بالتطور والإضافة والإبداع الجديد، ويري الدكتور عبد الجليل صالح: أنّ فن المديح كلون من الشعر الصوفي القديم ولد ناهضاً قوياً من أول يوم، وما ذاك إلا للحب العظيم النائط بشغاف قلوب محبيه ومادحيه مما جعلهم ينطقون من أول وهلة بكلام غاية في التجويد ونهاية في الأحكام (صالح، 2019)، ولنستمع لحسان بن ثابت الأنصاري يقول (حسان، 1994):

نَبِيّ أَتَانَا بَعْدَ يَأسٍ وَفَترةٍ مِن الرّسلِ والأَوْثانِ فِي الأَرْضِ تُعبدُ

فَأمْسَى سِرَاجاً مُسْتَنيراً وَهاَدِياً يَلُوحُ كَمَا لَاحَ الصّقِيلُ الْمُهنّدُ

وقد دخل العرب السودان منذ زمن بعيد، وعندما جاء الإسلام استمرت الهجرات إلى السودان ، واختلط العرب بسكان السودان وارتبطوا بهم ارتباطاً وثيقاً، وكانوا يزاولون حياتهم الطبيعية في هذه البيئة التي لم تختلف كثيراً عن بيئتهم التي انتقلوا منها (بدوي، 1978). ثم نشأت ثلاث ممالك إسلامية: الفونج، تقلي، والفور، وقد أسهمت هذه الدول إسهاماً كبيراً في نشر الإسلام واللغة العربية إلى درجة الإتقان، يقول الدكتور عبده بدوي: "وللحقيقة يمكن القول بأن في عربية السودان جزالة وشدة أسر، وجهامة في القالب تذكرنا بما هو موجود أحياناً داخل المعجمات (الأمين، 1969). ولا شك أن السودانيين كانوا يقولون الشعر منذ القدم وينظمونه في الأغراض المختلفة، إلا أن الكثير لم يصل إلينا، وقد بدأ الشعر شعبياً لا يخضع للغة الفصيحة وتقاليدها، وإن كان ينطوي على الأغراض العربية المتوارثة كالمدح، والحماسة، وقد تعدى الشعر الشعبي هذه الأغراض إلى التصوف الذي انتشر بانتشار الإسلام في البلاد؛ واعتبر الشيخ مثلاً أعلى للحياة وخصه بالكثير من أغراضه، ومن هنا انتشر لون من الشعر الصوفي (الأمين، 1969).

نجد أنّ حركة الشعر الصوفي في السودان ابتدأت منذ اختلاط القبائل العربية التي دخلت السودان عن طريق البحر الأحمر وطريق الشمال، ثم بدأت تظهر خيوط الشعر التي أخذت في البداية الجانب الدارجي الفطري، فظهرت المخطوطات الأولى من الشعر في الجانبين الديني والدنيوي، وظهر في الشعر الصوفي أوّل ما ظهر المديح، ومن الأمثلة: قصيدة الشيخ محمد الهميم في مدح الشيخ بانقا الضرير(سليمان، 2004):

هَذَا المُرَبِي الكِرَام سَادات سُلْطان زَمانُه فَأطْلُبة الدّعَوات

الشّيخُ مُحَمدٌ يَوْمَ لِقَا العَرضَات هُو يَشْفعُ لِي يَوْم تُكْشَفُ الْعَورات

لَا نَارٌ يخَافُ مِنْها وَلَا الْجَنّات يَشْتاقُ لِي نَظر الإلَه حَاجَات

وقام الشعر الصوفي في هذه الفترة بدور مهم في المجتمع السوداني بتوجيهه وتهذيبه وتعليمه، فهي نافذة للوعظ والإرشاد والعبرة والاعتبار ربطت بين ماضي الأمة السودانية وحاضرها بتمجيدها للإسلام وأبطال الإسلام، وتناول مدح الرسول ﷺ والدعوة إلى العبادة وزجر النفس وإتباع الهوى، وكانت وسيلة لنشر الثقافة الإسلامية وهي مليئة بأحداث السيرة العطرة وتعاليم الإسلام (الدرديري، 2014).

والثابت حسب المصادر أنّ أوّل شعر فصيح وصل إلينا موثقاً هو ذلك الشعر الذي نظمه شعراء التصوف الإسلامي ورجال الفقه في فترة دولة الفونج (1504م – 1821م)، وانحصرت أغراضه في مدح النبي ﷺ (الدرديري، 2014)، ومن أمثلته قول الشيخ مكي الدقلاشي القادري العركي:

اللهُ لِي عدة فِي كُـلّ نّائِبةٍ أقُولُ فِي كُلِّ نَائِبةٍ حَسْبِي اللهُ

يَا فَارِحاً بِالمَعَاصِي عِنْدَ خَلْوتِهِ أمَا علمَ بِأنّ الشّــاهِدَ اللهُ

نستنتج من ذلك أن الفترة التي بدأت من عصر الفونج إلى بداية الحرب العالمية الأولى (1914م- 1918م) هي فترة نشأة الشعر الصوفي في السودان ، ومن ثم تشكلت ملامحه المعروفة اليوم .

ويُعد (كتاب الطبقات) المعروف شعبياً بـ (طبقات ود ضيف الله) من أمهات الكتب ومن أشهر كتب التراث السوداني، والمرجع الأول المطبوع لدارسي التصوف في السودان، كما يعد الكتاب من المصادر الأولية المهمة في تاريخ (سلطنة الفونج)، إذ وردت بين ثناياه العديد من الإشارات التي تبين حياة التصوف والسلوك الاجتماعي ومكانة الأولياء والمتصوفين في الحياة والذكر(ود ضيف الله، 1992).

وقد تأسى شعراء الشعر الصوفي في السودان بسلفهم الصالح فكان المدح النبوي وما زال هو إحدى دوائر الشعر الصوفي، فإذا نظرنا لقول البوصيري يبين زهد النبي ﷺ (صالح، 2019) :

وَراودتهُ الْجِبالُ الشمُّ مِنْ ذهَبٍ عَنْ نَفْسِهِ فَأراهَا أيُّما شَمَمٌ

فنجد أنّ المادح أحمد محمد نور المعروف بـ (ود أبشريعة)، يصور هذا المعنى باللغة العامية السودانية (صالح، 2019) :

جَاتُو الْجِبالُ مَحْمُولةً مَا لِذهباً خَزِينا

طَه ابْجَمال مَاليه اما لْقلْبو الرّزينا

وأمثالها كثيرة باللغتين الفصحى والعامية في أشعار حاج الماحي وود سعد وعبدالملك وحياتي والسادة آل أبي كساوي والشيخ عبدالله بن يونس والسيد جعفر الميرغني والشيخ عبد المحمود والشيخ قريب الله والشريف يوسف الهندي والشيخ عبد الباقي المكاشفي والشيخ الصابونابي والشيخ البرعي وغيرهم ممن لا يحصر لهم عدد.

وبدخول الحكم التركي إلى السودان (1821م – 1898م) وإلى اليوم، بدأت تأخذ الثقافات العربية حقها الطبيعي في الانتشار في السودان، ولا سيما وسط السودان لارتباطه بمقر الحكومة وسهولة المواصلات بين مصر والسودان، هذا وقد انتقل من مصر إلى السودان شعر البرعي والبصيلي، وكبار شعراء اللغة العربية من خلال الزيارات والانتشار الثقافي، وظهر الشعر الصوفي الفصيح، ومنه قول الشيخ إسماعيل بن عبدالله (سليمان، 2004):

أَقُولُ بِحمدِ الْمنانِ وَأَشْكرُ فَضْلَ الرّحمَن لَمّا أَعْطَى وَأَوْلَانِي مِنَ الأَسْرارِ بِإِحْسَان

شَرِبْتُ الحُـبَّ كَاسَات وَلَمْ أرَ بِمرّات ظَهَرْتُ بِهَا سَكرات لأَسْقِي كُـلَّ ظَمآن

ويبقى القول: إنّ الحركة الأدبية في بداية الشعر السوداني قامت بمجهود صفوة من علماء وأدباء الصوفية؛ وكانت تسعى إلى النظم بالفصحى، ومهما يكن من شيء فإنّ الشعر السوداني نشأ في مجتمع زاهد بسيط تسيطر عليه الصوفية؛ بل إنّه شبّ في كنف الطرق الصوفية، فجاء معبراً عن لسان حال ذلك المجتمع، وأضحى نواة للشعر السوداني الفصيح الذي نضج عوده واستقام ميسمه حتى بلغت نضارة العبارة حد أن يقول إدريس جماع (جماع، 1989): دُنْيَاي أَنْتِ وَفَرْحَتِي وَمُنَى الفُؤادِ إِذَا تَمَنّى

أَنْتِ السَّماءُ بَدَتْ لَنَا واسْتَعْصَمَتْ بِالبُعْدِ عَنّا

وللشعر الصوفي في السوداني شأن عظيم ومكانة كبيرة، ويظهر ذلك من خلال المحبة الشديدة التي يكنها أهل السودان للمتصوفة وطرقهم ومشايخهم ولكثرة المادحين والمغنين الصوفيين . وكان لشعراء التصوف دور بارز في نشر الإسلام في ربوع السودان المختلفة، إذ استطاعوا أن يقدموا الإسلام بأسلوب سلس نابع من البيئة السودانية، فنظموا الأشعار والقصائد بأسلوب يفهمه عامة الناس ، متناولين سيرة المصطفى ﷺ العطرة وما اشتملت عليه من فضائل وشمائل ونفائس معبرين عن حبهم له، فساهموا في نشر الوعي الإسلامي بين الناس وكان دورهم عظيماً ومشهوداً .

وتُعد الخلاوى والمساجد في السودان من المؤسسات التي لها دور كبير في إثراء الروح الثقافية الصوفية، بجانب دورها في تحفيظ القرآن وتدريس علومه وتعليم الكتابة والقراءة؛ فقد لعبت الطرق الصوفية دوراً رائداً بإنشاء الخلاوى في كل ربوع البلاد، مما كان لها الأثر الكبير في انصهار المجتمعات السودانية وتشربها بالثقافة الصوفية الإسلامية.

وظلّ الشعر الصوفي في السودان منذ نشأته متغلغل في المجتمع، والسبب في ذلك النزعة الدينية الفطرية الوسطية للسودانيين ومحبتهم الشديدة لجناب سيدنا محمد ﷺ ، لذلك نلاحظ أنهم حينما يستمعون إلى هذا الشعر سواء كان لحناً أو إلقاءً فإنهم يتواجدون بشدة ويبكون، ونجد أن الشعر الصوفي قد أثر تأثيراً كبيراً على الشعر السوداني خاصة الغنائي منه، بل حتى ألحان الكثير من الأغاني السودانية مستمدة من ألحان قصائد الشعر الصوفي والمدائح النبوية (سليمان، 2004).

4.7 نبذة تعريفية عن الطريقة القادرية العركية

تعتبر الطريقة القادرية من أوسع الطرق انتشاراً في كل أرجاء العالم. وكان للسودان حظ وافر من هذا الانتشار إذ تعددت المدارس القادرية بعدة أسانيد، والطريقة القادرية هي أحد الطرق الصوفية السنية والتي تنتسب إلى عبد القادر الجيلاني (471هـ - 561هـ)، وينتشر أتباعها في بلاد الشام والعراق ومصر والسودان وشرق أفريقيا وشمال أفريقيا (صادق الطائي، 2017). وقد كان لرجالها الأثر الكبير في نشر الإسلام في قارة أفريقيا وآسيا، وفي الوقوف في وجه المد الأوروبي الزاحف إلى المغرب العربي.

مؤسس الطريقة القادرية، هو عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجيلي الحسني، ولد في 11 ربيع الثاني وهو الأشهر سنة 470 هـ الموافق 1077م، وهناك خلاف في محل ولادته، حيث توجد روايات متعددة أهمها القول بولادته في جيلان في شمال إيران حالياً على ضفاف بحر قزوين، والقول أنه ولد في جيلان العراق وهي قرية تاريخية قرب المدائن 40 كيلو متر جنوب بغداد، وهو ما أثبتته الدراسات التاريخية الأكاديمية وتعتمده العائلة الكيلانية ببغداد، وقد نشأ عبد القادر في أسرة وصفتها المصادر بالصالحة، فقد كان والده أبو صالح موسى معروفا بالزهد وكان شعاره مجاهدة النفس وتزكيتها بالأعمال الصالحة ولذا كان لقبه محب الجهاد، وقدم بغداد شاباً سنة 488 هـ (الدروبي، 1959)، وتفقه على عدد من مشايخها. جلس للوعظ سنة 520هـ ، وحصل له القبول عند الناس، واعتقدوا ديانته وصلاحه، وانتفعوا بكلامه ووعظه. اشتهر عن الشيخ عبد القادر ما يدل على فقهه وعلمه، وظهرت على يديه الكثير من الكرامات، وتاب وأسلم على يديه العديد من الناس. توفي وعمره 90 عاماً ودفن في رواق مدرسته سنة 561 هـ (الذهبي، 1985).

5.7 أماكن انتشار الطريقة القادرية

ينتشر أتباع الطريقة القادرية في كثير من البلاد أشهرها: سوريا وتركيا والعراق والسودان والمغرب والجزائر وفلسطين ولبنان والصومال وتنزانيا وكينيا وأوغندا وموزمبيق والكاميرون ونيجيريا والصين والاتحاد السوفيتي وغانا وإيران والجزائر والنيجر ومالي وغينيا وتشاد وأفغانستان وباكستان والصومال وإندونيسيا ويوغسلافيا ومصر وتونس وماليزيا وارتيريا، وغيرها من البلدان (الكيلاني، 2014)، وتفرعت عن الطريقة القادرية عدة طرق وما يلي الدراسة من تلك التفرعات للطريقة القادرية، الطريقة القادرية العركية في السودان، وهي من أهم هذه المدارس القادرية وأوسعها امتداداً على رقعة البلاد، وهي مدرسة الشيخ عبد الله العركي وشيخها حبيب الله العجمي، واشتهرت هذه المدرسة بالطريقة القادرية العركية وهي التي يرجع سندها إلى الشيخ عبد الله العركي المولود في القرن العاشر الهجري (923هـ) أي منتصف القرن السادس عشر الميلادي (1517م) والمتوفَّى عام (1019هـ / 1611م) تقريباً (أبو إدريس، 2017)، وقد اخذ بيعة الطريقة هناك من الشيخ حبيب الله العجمي خليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني آنذاك، ثم جاء إلى السودان لنشر الدعوة واستقر في كردفان في منطقة تدعى (بئر سرار) ثم انتقل إلى منطقة (أبو حراز)، حيث مركز الطريقة العام الآن. يقول الشيخ أبو إدريس: إن الشيخ عبد الله العركي كان له دور كبير في انتشار الطريقة القادرية في السودان، وأن معظم الطرق القادرية يرجع سندها إليه إما مباشرةً أو عن طريق خلفائه (أبو إدريس، 2017). وقد شهدت الطريقة القادرية العركية اتساعاً عظيماً فى فترة خلافة الشيخ دفع الله بن أبي إدريس المشهور بالمصوبن، وكان تلاميذه يفدون إليه من مختلف بقاع السودان، ومن هؤلاء الوافدين تلميذه الشيخ محمد المسلمى الذى كان يأتي ومعه أربعة عشر ألفاً من السالكين لطريق القوم، وأيضاً كان الشيخ عبد الله الحلنقي يأتي وبصحبته عشرة آلاف من المريدين السالكين، هذا بخلاف الجماعات والأفراد المتفرقة التي كانت تأتي زرافات ووحدانا (أبو إدريس، 2017).

ويرى الباحثان أن هذا الانتشار الواسع للطريقة القادرية العركية أتى نسبةً لتفرق خلفاء العركيين في شتى بقاع السودان، ولأنهم بيوت علم وصلاح فقد أسسوا المساجد والخلاوي أينما حلوا، ويؤكد ذلك كثرة مسايدهم في الجزيرة، والنيل الأزرق، وأم درمان حيث نجد أبناء الشيخ حمد النيل والشيخ دفع الله الصائم ديمه وغيرهم .

8- شعر الطريقة القادرية العركية

التصوف علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة (الشعراني، 1984)، قال الشاعر(ظهير، 1986): عِلْمُ التَّصَوفِ عِلْمٌ لَيْسَ يُدْرِكُهُ إلّا أَخُــو فِطْرةٍ بِالحَقِّ مَعْرُوفُ

وَكَيْفَ يَعْرِفُهُ مَنْ لَيْسَ يَشْـهَده وَكَيْفَ يَشْهَدُ ضَوْء الشَّمْسِ مَكْفُوفُ

والصوفية هم أهل الاستطاعة، لقوله ﷺ: "ما نهيتكم عنه فانتهوا ، وما أمرتكم به، فأتوا منه ما استطعتم". والاستطاعة هنا قدرة نهوض وتوجه نفسي، واختص الصوفية بأعمال القلوب، وأحكام الورع، ومداومة الذكر، ومحاسبة النفس وحب الرسول .

إنّ شعر الطريقة القادرية العركية في السودان، قد ترك آثاراً متعددة ومتجددة في الحياة السودانية منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي، مما جعل لتلك الآثار أهمية خاصة في دراسة المجتمع والسياسة والثقافة وروافد الشخصية من خلال نهجها التربوي وأشعارها وأورادها وآداب الطريق (أحمد، 2000). فالإنتاج الأدبي الرفيع يخضع للمقدرات الفردية المتحصنة بهذه الطريقة الصوفية، والشعر أحد ضروب هذه الأدبيات. ولعلنا نعلم أنّ نظم الشعر إبداع فردي في إطار يوافق ما يستظل به من طريقة صوفية، وهي أيضاً من المسائل التي لم تكن وقفاً على شعراء السودان والطريقة القادرية العركية، بل وجدنا طوال مسيرة الصوفية قدراً من هذا الإنتاج الشعري والأدبي، الذي يصعب حصره، وليس من الممكن الوقوف على حدوده بدأ من البردة وتخميسها وتشطيرها، وما جاء مدحاً لرسولنا الكريم ﷺ، ومروراً بالأناشيد الدينية باللغتين الفصحى والعامية الموجودة في كل بلد مسلم أو عربي (أحمد، 2000).

والناظر إلى شعر الطريقة القادرية العركية في السودان، يلاحظ أنه يعنى بالبحث عن الحقيقة والنفاذ إلى صميم الأشياء وكشف ما وراء الطبيعة، فهو يحلق في آفاق الطهر، ويسمو فوق الرغبات الحسية ويتفوق على جموح النفس، بل ويدنيها أحياناً، ويعد الجسم سجناً لها في كثير من الأحيان . والشعر الصوفي عندهم، بل عند كل المتصوفة يكون إلهياً محضاً، تستخدم فيه المادة الشعرية للرمز عن الحقائق ، وهو شعر مؤول، لا يقصد ظاهره في

كثير من الأحيان، وإنما له محامل يحمل عليها وتليق به، يروى أن الأمام العارف بالله محي الدين بن عربي، قال (ابن عربي، 1996): يَا مَنْ يَرَانِي وَلا أَرَاهُ كَمْ ذَا أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي

فلما سمع بعض إخوانه هذا البيت، سألوه : كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟! فقال ابن عربي مرتجلاً (المقري، 1988): يَا مَنْ يَرَانِي مُجْرِمَاً وَلا أَرَاهُ آخِذَا

كَمْ ذَا أَرَاهُ مُنْعِمَاً وَلَا يَرْانِي لَائِذَا

وقد حذر محي الدين بن عربي من سوء الفهم، أو سوء التأويل لكلمات المتصوفة، ومن ذلك أنهم نسبوا إليه وحدة الوجود ، ونسبوا إليه أنه جعل الحق والخلق شيئاً واحداً حين قال (ابن عربي، 1968):

فَيَحْمدُنِي وَأَحْمدُهُ وَيَعْبدُنِي وَأَعْبدُهُ

يقول الشعراني عن ذلك: هذا منطق عربي مبين، على نهج الأسلوب القرآني، وعلى صحة نسبة هذا القول إليه، فمعنى يحمدني: أنه يشكرني إذا أطعته، وأما قوله: ويعبدني وأعبده، أي: يطيعني بإجابته دعائي (الشعراني، 1984). ومن هنا ندرك أن الشعر الصوفي في أكثره لا يفهم إلا على سبيل التأويل.

وإذا تتبعنا شعر الطريقة القادرية العركية في السودان وجدنا فنونه وأغراضه تتمثل في فنون الشعر الصوفي المختلفة من مديح نبوي وحب إلهي وغزل صوفي في مختلف الدواوين والقصائد، وقلما نجد غرضاً مستقلاً.

ومن أغراض وموضوعات الشعر الصوفي عند الطريقة القادرية العركية في السودان:

1.8 **الحب الإلهي**

ويعني حب العبد لله سبحانه وتعالى، قال الطوسي: إن المحبة الإلهية هي حال لعبد نظر بعينيه إلى ما أنعم الله به عليه، ونظر بقلبه إلى قرب الله تعالى منه وعنايته به، فنظر بإيمانه وحقيقة يقينه إلى ما سبق له من الله تعالى من العناية والهداية، فأحب الله عز وجل (الطوسي، 1960)، وإن الحب الإلهي ذلك الذي أشارت إليه رابعة العدوية في قولها (الأمين، 1969): أُحِبُكَ حُبَيْن حُبُّ الهَوَى وَحُبٌّ لَأَنَّـكَ أَهْلٌ لِذَاكَا

فَأَمَّا الذي هُوَ حُبُّ الهَوَى فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّن سِوَاكَ

وَأَمَّا الذي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفكَ لِلحُجِبِ حَتَى أَرَاكَ

وتتجلى صورة الحب عند الصوفية في صورة نادرة من الوفاء للمحبوب والتفاني والسمو بالمشاعر والتحرر من قيود العالم المادي، وهو ما ينشده المتصوفة في مشاعرهم ، يقول أحمد أمين: وللصوفية شعر جميل مملوء بالحب والفناء ووحدة العاطفة وقوة الوجدان ... وقد استعملوا فيه التعبيرات الدنيوية على سبيل الرمزية من خمر ونساء وبكاء أطلال وحب وهيام ووصال ... يعنون بذلك أحوالهم مع ربهم. وقد استمدّ الحب الإلهي في الشعر الصوفي مرجعيته من النص القرآني، قال تعالى: " قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (آل عمران، 31).

ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد سبقا الشعر الصوفي في استعمال هذا اللفظ، إلا أنهم قد اهتموا به ويرون أنه فناء في الخالق عز وجل، وتعلق أفئدتهم وانشغالهم الدائم به، يحقق لهم القوة في الإيمان.

ومن ذلك الحب الإلهي حيث تأثر الشعراء الصوفيون في السودان، ولا سيما شعراء الطريقة القادرية العركية بالشعر الصوفي العربي، وهم في ذلك متأثرون بالشعر الصوفي العربي وخاصة بشعر سلطان العاشقين ابن الفارض، فقد اقتطع من قلبه كثيراً في حب الله ، ولم يكن هذا الحب لله فحسب، ولا ينفني في جمال الذات الإلهية المطلق فحسب، بل إنه يحب كل شيء ويجد نفسه منجذباً إلى كل شيء جميل ،ونجده يحدث عن نفسه فيرى أن ما قيل قبله في الحب الإلهي وما سيقال بعده، لم يبلغ مبلغه، بل إنه المثل العلى الذي ينبغي أن يقتدى به، يقول (ابن الفارض، 1967): قُلْ لِلذينَ تَقَدَمُوا قَبْلِي وَمِنْ بَعْدِي وَمَنْ أَضْحَى لِأَشْجَانِي يَرَى

عَنّي خُذُوا وَ بِي اقْتَدُوا وَلِي اسْمَعُوا وتَحَدَثُوا بِصَبابتِي بَيْنْ الوَرَى

والحب الصوفي لدي القادرية العركية في السودان ذكر فيه هذا الحب المتعلق بحب الإله وحب رسوله ﷺ، وحب مشايخهم، ومن ذلك قول الشيخ عبدالقادر الجيلاني:

وَلَمّا صَفَا قَلْبي وَطَابَتْ سَرِيرَتِي وَنَادَمَنِي صَحْوِي بِفَتْحِ الْبَصِيرة

شَهِدْت بِأَنَّ الله مَوْلَى الْوِلاَيَةِ وَقَدْ مَنَّ بِالتَّصْرِيفِ فِي كلِّ حَالَةِ

سَقَانِي إِلهِي مِنْ كؤوس شَرَابِهِ فَأَسْكَرَنِي حَقَا فَهِمْت بِسَكْرتِي

إنّ الصوفية في حبهم لله لا يعول عليه بالطاعة، لأنها واجبة على الجميع، فمن أطاعه فيجزى خير الجزاء، أما الحب فهو حب خالص مجرد عن أي غرض، يقول الشيخ دفع الله القادري العركي (دفع الله، 2009):

جَوْفُ الهُجوعِ لَبس الدُروع نِعْمَ الخشُوعُ نَزلنْ دُمَّوع

جَوْفُ الهَجايِم هَبّن نَسَايم وَيَذُوب الهَـايم للهِ قَايم

2.8 المديح النبوي

يقف الباحثان هنا أمام ممدوح في غنى عن مدح الشعراء، وثناء البلغاء فقد أثنى عليه ربه وعظمه فقال: "وإنك لعلى خلق عظيم" القلم 4. فضله الله بالرسالة واصطفاه للقرب والمشاهدة، وختم برسالته الرسالات، وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق، وجمع له بين جمال الخلق وسمو الخلق، فأمّ الشعراء محراب جماله، ووقف الشعر في أعتابه مذ كان في المهد صبياً ،حين أنشد عبد المطلب (ابن هشام، 1956):

الحَمْدُ للهِ الّـذي أَعْطَانِي هَـذَا الغُلامِ الطّيبِ الأَرْدَانِ

قَدْ سَادَ فِي المَهْدِ عَلَى الغلْمَانِ أَعِيْذُه بِالبَيْتِ ذِي الأَرْكَانِ

إنّ المديح عند العرب في عصورهم الأولى فخر كله، إذ إن أساس الطبيعة البدوية فضيلة الاعتماد على النفس، وهي التي تحدث الكبرياء الصحيحة، ولم يعرف العرب كذلك التكسب بالشعر، حتى ضعفت البداوة عندهم ، فرأينا بعض الشعراء يتكسبون بشعرهم. ولما جاء الإسلام مدح الشعراء أمثال: حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، الرسول ﷺ، فكان ذلك أول منابع الشعر الصوفي، فكانت قصيدة كعب بن زهير طريقاً التمسه الشعراء من بعده في العصور التالية في مدح الرسول ﷺ، وتفننوا فيه غاية التفنن، ومطلعها (كعب، 1989):

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْم مَتْبُولٌ مُتَيّمٌ إثْرهَا لَم يَجْزِ مَكْبُول

أضحت هذه القصيدة فاتحة لوناً جديداً من الشعر، عرف باسم المدائح النبوية عند الصوفية ، فهي لون من ألوان التعبير عن العواطف الدينية، وباب من أبواب الأدب الرفيع؛ لأنها صدرت عن قلوب مفعمة بالحب الصادق والإخلاص المكين. والأمداح النبوية تعد من ذيول السيرة النبوية وهي البذور الأولى للشعر الديني عامة، كما أنها وثيقة الصلة بالزهد والتصوف؛ بل أن بعض الباحثين اعتبرها من فنون الشعر التي أذاعها التصوف .

وقد نظم الشيخ المكاشفي في المديح النبوي قصيدة طويلة من أكثر من ستمائة وخمسين بيتاً قام فيها بتسبيع قصيدة البردة" للإمام شرف الدين البوصيري سماها شموس الأنوار في مدح النبي المختار ومطلعها: (البوصيري، د.ت)

اللهِ يَدْرِي فُؤادِي فِيكَ ذُو هِمَمٍ فِي عِشْقِهِ وَحَشَاشِي زَائدٌ بِالنّهمِ

عَلَى نَبّي عَظيمٍ نَافِي التُّهَـمِ كَففتُ مَاءَ عيُونِ المَاءِ سَائل مَهمِ

أَمِن تَذكُرِ جَـيْرانٍ بِذِي سَلَمِ مَزَجتُ دَماً جَرى مِن مُقلة بِدمِ

ويمتاز الشعر السوداني والشعر الصوفي منه بكثرة المدائح النبوية، ولا سيما المدائح النبوية الشعبية، ولا اعتقد أن هناك قطراً عربياً يماثل السودان في الكثرة، وللمديح النبوي في السودان شأن عظيم ومكانة كبيرة ويظهر ذلك من خلال المحبة التي يكنّها أهل السودان للنبي محمد ﷺ، ولكثرة المادحين الذين برعوا في فنون المديح وأبدعوا فيها باللغتين الفصحي والعامية، حتى أصبح السودان الأشهر في هذا المجال(بخيت، 1969).

وعُرف المديح النبوي في السودان بأنه مؤسسة شامخة عبر التاريخ لها أعلامها القدامى والمحدثين وملتزموها من المحبين، وكان لشعراء التصوف والطرق الصوفية دور بارز في هذا المجال (صالح، 2019)، ومن بين تلك الطرق الصوفية، الطريقة القادرية العركية، فنظموا الأشعار والقصائد المدحية باللغة الفصحى والعامية بأسلوب سلس نابع من البيئة السودانية ويفهمه عامة الناس، متناولين سيرة المصطفى ﷺ العطرة وما اشتملت عليه من فضائل وشمائل ونفائس معبرين عن حبهم له، فساهموا في نشر الوعي الإسلامي بين الناس، وكان دورهم عظيماً ومشهوداً.

وللشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن الشيخ يونس العركى إنتاج شعري ضخم في مدح الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم، جُمع في ديوانه "الدر النظيم في مدح النبي العظيم"، ومن ذلك قوله (وديونس، 1994):

مَا فِيكِ يَا لَيْلَاي كَانَ تَتَيُمِي لَكنّنِي فِي شَافعٍ وَمُشَفعيٍ

مَنْ كَانَ يَحْلِبُ شَاتَه وَيَقُومُ فِي أَغْراضِ أَهْلِيه بِغَيْرِ تَرَفُعِي

وَمَنْ أنتَقاهُ اللهُ سَيفاً قَاطِعاً أَعْنَاقَ أَهْلِ الشّركِ حِزب الأَوكَعِي

طَه البَشِيرُ الهَاشِميّ مُحَمّدٌ مَوْلَى الأَنَامِ وذُو المَقَامِ الأَرْفَعِ

وبالنظر في أشعار المدائح نجد شعراء الطريقة القادرية العركية في السودان قد التزموا فيها بساطة الأسلوب مستعملين الخطاب المباشر في مدح الرسول ﷺ، والاستنجاد به شفيعاً للخلق من الذنوب، وهو موقف لم

نعهده من الصوفية في أشعار الزهد والابتهالات ، ويعزى ذلك إلى كون المدائح النبوية أصبحت أثراً شعبياً يتناقله الناس ويرددونه كالأذكار والتسابيح ، فهي إرث ديني اجتماعي .

ففي ديوان الشيخ دفع الله بن الفقيه وقيع الله نجد فيه باباً كاملاً عن المدح النبوي، يذكر فيه السيرة النبوية الشريفة، ويتغنى بشمائل المصطفى ﷺ (دفع الله، 2009):

الله الله صَلّى عَليه نَبِينَا مُحَمّد الحَابُو نّجِي

بِسْـمِ اللهِ أوّل بَادِي بِالحيّ الـكَرِيمِ هَادِي

يَهْدِينَا الـرّاضِي وَكُل يَوم نصَلي عَليه

الله الله عَظِـم لِيه يآ شَـباب بُشْرَانا بيه

فِي الـذّكر بِنَبْتدي بيه وَعندَ الخَتْمة نَصلي عَليه

وفي قصيدة أخرى له بعنوان قصدي ومرادي يقول (دفع الله، 2009):

قَـصْدِي وَمُرادِي لِي لِيم أسْيَادِي

بِسْمِ اللهِ بَادِي بِنُـورِ فُؤادِي

بِي نَبِينَا نَحَادِي لِي كُلِ أشْدَادِي

نلاحظ في شعر الشيخ دفع الله، أنه لم ينظم باللغة العربية الفصحى، وقد كان الشيخ ملماً باللغة العربية الفصحي إلماماً تاماً، فهو خريج المعهد العلمي بأمدرمان ، بل جاء شعره بلهجة أهل السودان العامية، لأن ذلك كان ومازال اللسان السائد في كثير من الأوساط السودانية، وقد نهج هذا النهج من اللهجة العامية معظم شعراء الطرق الصوفية في السودان، وربما كان هم الشيخ يتمثل في حبه إيصال الخير إلى قلوب الناس بأيسر الطرق وبأقرب اللهجات إلى فهمهم، وقد كان هذا ديدن الشيخ دفع الله حتى في إرشاده وخطابه للناس ، فقد كان يتخير في كلامه أيسر العبارات وأسهل المفردات، ولهذا أراد أن تكون أشعاره باللهجة العامية لتنزل سهلة إلى عقول وقلوب الناس، تمثلاً بقوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ" إبراهيم 4. لقد كان الشيخ دفع الله الصائم ديمه مثالاً لأهل التصوف يحتذى به. فقد تحلى بكامل الصفات السنية من تقوى وعلم وحلم وزهد وورع وقد شهد له أقرانه بذلك منذ صباه. كما كان شفوقاً على المريدين كريماً للزائرين، سخياً للمحتاجين والمعوزين. فكانت هذه الأخلاق حاله وكانت هى مقاله إذ تفيض أشعاره وأقواله الإرشادية بالدعوة لهذه الأخلاق المحمدية والتمسك بها، ففى إتباع القرءان والسنة يقول:

حَيّ يَا وَهَاب افتَحْ لَى بَاب أَسْلُك آدَاب سُـنّة وَكِتَاب

وللشيخ أحمد بن الشيخ دفع الله مجموعة من المدائح النبوية وقصائد القوم الصوفية فى كتاب يسمى: ديوان العُبَّاد فى مدح خير العِباد، ومن هذه المدائح والقصائد ما طبع فى ألبومات كاسيت وهى: 1- المكسى بالأنوار 2- النسايم زادن 3- الجوهر المكنون 4- سلامى يفوق وغيرها من قصائد المديح النبوي.

وللشاعر أحمد ود حاج مصطفى قصيدتان هما من معلقات المديح النبوي السوداني، وتعتبر كل قصيدة منهما ديواناً قائماً بذاته في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و أزكى التسليم، فالقصيدة الأولى مطلعها (سليمان، 2004):

الصّلاةُ وَالسَّلامُ لِى شَافع الدّارينِ أَحْمد كَنْزَنا جِد الحَسَن وَحُسَيْن

والقصيدة الثانية مطلعها:

رَضِيَ اللهُ عَنْ أَصْحَابِ نَبِيّ المِللِ صِديق وَعُمر وَعُثمان وَ ثُمّ عَلي

مِنْ قَبْلِ الوَضُوء احْكَمْتُ لِلغُسلِ صَلَيْتُ رَكْعَتين للِه غَيْر كَسلِ

عَاكِف وَاقفاً بِالخَوفِ والذّللِ بِى بَاب الكَرِيمِ اليَعْطِى غير سُؤلِ

3.8 مدح الشيوخ

هناك مدائح متعددة في شعر الطريقة القادرية العركية، صدرت من شعرائهم تقديراً لأولئك الشيوخ والعلماء والأولياء الذين استفاد الناس بعلمهم وعلومهم وتآليفهم، فإنهم يرون المديح من باب الوجوب، نظراً إلى المنافع والخيرات التي استقوها منهم .

وقد جرت روايات المديح والقصيد المنسوب للشيخ عبد القادر علي ألسن كثير من المداح منهم: أبناء شكيره الوادي، وأبناء الشيخ مصطفي الفادني، وأبناء الشيخ الصائم ديمه، وأبناء الشيح الغرقان، وأبناء الشيخ ود النذير بالقوز، وأبناء الشيخ ود بدر بأم ضواً بان، وأبناء العديج والكسمبر وطيبة الشيخ عبد الباقي وأم دقرسي وحمد النيل؛ هذا علي سبيل المثال لا الحصر إضافة إلي أبناء الشيخ أبو كساوي. وتفنن الشيخ في مديح القوم حتي بلغ شأواً تستحيل في مجاراته، فقد مدحهم إجمالاً فأبدع وخص بعضهم بالذكر، كقوله في الشيخ حسن ود حسونه:

حَسَن مَنبور حَسَن يَا وَد حَسُّونه التّور شَي لله

وقال فيه أيضاً: يَا مُنَادي لَي أَبُونَا حَـسَن وَد حَسُّونَه

كما قال أيضاً في قصيدته المشهورة (شئ لله) جامعاً سلسلة القوم أمثال السادة الأعراك: الشيخ المسلمي والشيخ النيل راجل أم قرقور والشيخ أحمد الكشيف وأزرق بابنوسة والشيخ القرشي ود الزين والشيخ أحمد الطيب ود البشير وغيرهم كثير، وفيها يقول: شَئ للهِ يَا حَسَن يَا سُلْطَان الزَّمن

يَا قَويم السُّنَن يَا أُسْتَاذ الزَّمن

أَنْتَ بَاب المِنَن

والعركيون في مختلف عهودهم لهم تلاميذ ومريدون كتبوا عنهم وعججوا مناقبهم وشعراء أثبتوا أمجادهم وإرشادهم للخلق، ولعل قصيدة الشيخ القاضي أبي القاسم بن القاضي دفع الله خير شاهد لهذا الأمر، وقد مدح فيها الشيخ عبدالباقي بن الشيخ حمد النيل وأسلافه العركيين، فيقول (أبو إدريس، 2017):

عَريق المَجد مَولى كُل مولى كريم الطبع والأصل الشهير

مِن النّيلِ المُبارك مُسْتمد وأحمد من أراح من الكدور

وَوالدُه مُحمّدٌ شَمْسُ فضلٍ ويُوسف ذِي الشراء إلى الشرُور

إلى القنديلِ والقُطب الطريفي علتْ بِهمُ العُلا متن القصور

ومن ذلك أرجوزة النسب للعلامة الشيخ محمد على الطيب تلميذ القطب الشيخ حمد النيل، وهي أرجوزة طويلة انتظمت نسب العركيين من سيدنا الحسين إلى آخر من عاصرهم من شيخوهم في عصره، ونقتطف منها (الطيب، 2000):

يَارَبّنَا بِالمُصْطفَى وَآلِه وَصَحْبِه ومُقتفي فعَاله

بِشْيَبة الحَمدِ ذِي التَّصديقِ وَعُمرالكَهْف الرَّجاء الفَارُوق

بِسَيّدي عُثمان ذِي الأَسْرارِ وبابن عَمِ المُصْطفَى المُختَار

وبِالبَتُولِ ثُـمَّ بِالسّبْطَينِ وَمَنْ تَرَقّى مِن بَنِي الحُسَين

إلى أن يقول:

وَيا سَلامة بالتُقى سَلامة يَسُر لنا طَريق الاسْتِقامة

بنافع وابْنه مُحـمّد نَسألُكَ اللّهمَّ سِتْر الأبـد

وَمِن هُنا قَد لقبُوا بعَركّي هم عُدتي لِشدتي وَدركِي

ومن قصيدة أخرى في مدح الشيوخ، يمدح الشيخ يوسف بن الحسين، الشيخ أحمد الريح الذي اشتهر بالكرم الفائق حتى لقب بـ (شبع الجوع)، والذي في عهده اتسع نطاق الدراسة للقرآن والفقه حتى بلغ عدد الطلاب نحواً من سبعة آلاف طالب يواجه الشيخ كل مطالبهم من سكن وإعاشة وكساء وتخريج للحفظة منهم، فهذه بعض شمائله التي سطرها تلميذ حفيده الشيخ يوسف (أبو إدريس، 2017):

يَا رَاكباً ظَهْر العَزائم طاوياً تِلكَ المفَاوزُ مَهْمَهاً وبِطَاحا

وَعِجِ المَطي وَقِفْ بجَاه سادةٍ بأبي حَراز مُوسم الأَرْبَاحا

وادخل حِمى الحرمِ الّذي هُو آمنٌ من حله لا يشتكي الأتراحا

وَقَلِ السّلامُ عَليك يَا مِن فَضْلِهِ بحر يموج معارفاً وسماحا

وللشيخ دفع الله الصايم قصيدة طويلة بعنوان: سلام الله على أهل المقام يمدح فيها السادة مشايخ الطريقة العركية وأقطابهم، منها قوله (دفع الله، 2009):

سَلامُ اللهِ عَلى أهلِ المقَامِ سَلامُ اللهِ عَلَى الجَافُوا المَنامَ

رِجالاً طَلَّقُوا الدُّنيا وَفَازُوا وَجسُومهم مُنْحِلات مِن الصّيامَ

وقد مدح شعراء الطريقة القادرية العركية شيخهم عبدالله بن الشيخ دفع الله العركي بأسمائه وألقابه، ومن ذلك ما قاله شاعر العركيين المشهور بولد أبو مروة مادحاً الشيخ العركي بكنيته أبوالبتول (أبو إدريس، 2017):

العَرَكِي أَبُو البَتَوُلِ مَا فِيه مُشِكٌ أبو دقناً عفيـفة النور حبكه

أَرْضُ الفُونجِ والعَربِ بِالسّرِ مَلَك رَفَعَ الشّيخَ عَجِيب ورآه مَكه

وأيضاً كني الشيخ العركي بأبي الأبوات، وذلك لأبوته الروحية لإخوانه والنسبية لأبنائه وأبناء إخوانه وبنهم، وفي ذلك يقول شاعر العركيين (أبو إدريس، 2017):

أَبُو الأَبواتِ العَرَكِي صَليت إمَام العَرَكِي

فِي مَكةَ قَامَ العَرَكِي لإرشَاد أَنام العَرَكِي

وقد أطلقت على العركي ألقاب كثيرة منها، شيخ الإسلام الورع الزاهد الناسك ذو المعرفة التامة لعلوم الشريعة والحقيقة السالك لسبيل السادة الأقدمين وأكمل المتأخرين القطب الرباني والفرد الصمداني الذي هو أحد الركنين الفقه والتصوف وهو ذروة العدول الخمسة كما ذكره شاعر العركيين بقوله (أبو إدريس، 2017) :

بِالعَرَكِي إمَام أَهْل السُّنة ِمن حُبَهُ لَدى الخُطوبِ جُنَّهْ

وقد أفرد الشيخ الحسن ود قرشي لمشايخ الطريقة القصائد الرائعة التي تعدد مآثرهم وقد بث فيها كثر من حنينه إليهم، و ذكر ما يفيضون به على المريد من المنح والمنن في مجال التربية والسلوك على درب التصوف، وقد صاغ الشاعر كل ذلك في قصائد ملهمة معبرة امتاز فيها بنفس بديع طويل فهو لا يغادر المعنى حتى يستوفيه ولا الموضوع حتى يستقصيه، واتى بفرائد في قصائده فاق بها سابقيه ولا يدركه لا حقوه وشعره يمتاز بجمال اللغة وحسن السبك وسهولة النظم، من ذلك قوله (ود قرشي، 2001):

اللهُ جَـلّ المُفرد يَا مُسلمين فَوَحِدُو

وَعَلَى حَبِيبه مُحمّدٍ صَلُّوا عَليه وَمَجِدُو

خاتمة

اهتمت الدراسة بإلقاء الضوء على التصوف في شعر الطريقة القادرية العركية، وأبرز موضوعات شعرهم وفنونه، وقد توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج ، من أهمها:

1- الأصل الذي اشتُقَّت منه كَلمة (التَّصَوُّفِ) وردت فيه عدةَ احتمالات، أبرزها: أنَّ الكَلمةَ نسبة إلى الصوف، أو مشتقة من الصَّفاء، أو أنَّها مشتقة من كلمة "صوفيا" SOFIA اليونانية التي تعني الحكمة، وأنّ أفضل الاحتمالات أنها مشتقة من "الصوف".

2- انتشرت الطرق الصوفية في كل أرجاء السودان حتى وصل عددها إلى حوالي أربعين طريقة أساسية وفرعية ، أشهرها الطريقة القادرية بفروعها المتعددة.

3- إن الأشعار الدينية للطريقة القادرية العركية تشغل الحيز الأعظم من ركن الشعر الصوفي، وأن شعر الطريقة القادرية في السودان زاخر بفنون وأغراض الشعر الصوفي كالمحبة الإلهية، والمديح النبوي، وشعر التوسلات والابتهالات.

4- لجأ شعراء الصوفية إلى استخدام الرموز في أشعارهم، وهذه ظاهرة جلية لديهم.

5- استخدم شعراء الصوفية مصطلحات خاصة بهم عبّروا بها عن عالمهم.

التوصيات

- إجراء دراسات أخرى حول شعر الطريقة القادرية العركية تتناول جوانب ومجالات أخرى.
- القيام بعدد من الدراسات لإبراز القيم الإسلامية والأخلاقية لدي شعراء الطرق الصوفية في السودان.

المصادروالمراجع

- القرآن الكريم .
- ابن منظور، محمد بن مكرم (1993). لسان العرب م 8، ط3، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ، ص303.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (1993). مقدمة ابن خلدون، ط 1، دار الكتب العلمية ،بيروت، ص611.
- ابن الفارض، أبوالقاسم عمر بن أبي الحسن (1967). ديوانه، دار المعرفة، بيروت، ص 89.
- ابن هشام، عبدالملك الحميري (1956). السيرة النبوية، حققها: مصطفى السقا وآخرون، ج1، مكتبة مصطفى، القاهرة، ص 146.
- ابن عربي، أبي بكر محي الدين (1996). الفتوحات المكية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 163.
- ابن عربي ، أبي بكر محي الدين (1968). ديوان ترجمان الأشواق، تحقيق: محمد الكردي، دار بيبيلبون، باريس، ص210.
- أبو نعيم، الإمام الحافظ أحمد بن عبد الله (1997). حلية الأولياء و طبقات الأصفياء ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، المجلد 2 ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ص 156.
- أبو إدريس، عبدالرحمن (2017). الوراثة المصطفوية المحمدية الإسلامية، ط1، شركة مطابع العملة، الخرطوم، ص 45.
- أحمد، عبدالحميد محمد (2000). الصوفية تجربة إنسانية، مجلة الفيض، العدد9، ص 24.
- الأمين، أحمد (1969). ظهر الإسلام، م2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص 841 .
- البقالي، هشام (2020). إسهامات متصوفة العصر المرابطي، مجلة العبر للدراسات التاريخية، العدد 3، طنجة، المغرب، ص 95.

- البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل (1981). صحيح البخاري م 2، مطبعة بيت السنة، القسطنطينية، ص 256.
- البوصيري، شرف الدين محمد بن سعيد (د.ت) . بردة المديح، من منشورات دار التراث البوديلمي ، ص 28.
- بدوي، عبده (1978). الشعر في السودان، عالم المعرفة، الكويت، ص 21.
- الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف (1938). كتاب التعريفات. طبعة حلبي، القاهرة، مصر، ص 46.
- جماع، إدريس محمد (1989). ديوان لحظات باقية، دار الفكر الخرطوم، ط2، ص17.
- حسان بن ثابت، ابن المنذر(1994). الديوان، قدم له: عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ص14.
- الدروبي، إبراهيم (1959). المختصر في تاريخ شيخ الإسلام، ط1، باكستان، ص 52.
- الدرديري، بابكر الأمين (2014). من قضايا الأدب السوداني، ط1، مطبعة جامعة الجزيرة، مدني، ص40.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (1985). سير أعلام النبلاء، ط3، مؤسسة الرسالة، ج20، ص 439.
- الرازي، محمد بن أبي بكر(1973). مختار الصحاح، ط2، دار الفكر، بيروت، ص373.
- الزكوى، عبدالرحمن عبدالعزيز(1961). نشر الياسمين في قصائد عيد الأربعين، مطبعة مركز العلوم، نيجيريا، ص 45.
- زروق، أحمد (2005) . قواعد التصوف، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 2، ، القاعدة الثانية، ص 21.
- الشعراني، عبدالوهاب بن أحمد (1984):الطبقات الكبرى، تحقيق: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، ص 9.
- صالح، عبدالجليل عبدالله (2019). لمحات من الشعر الصوفي بأم عيدان، الراوي للنشر والتوزيع، الخرطوم، ص 12.
- صادق الطائي (2017). الصوفية في العراق: جدل الدين والسياسة، مجلة القدس العربي، العدد 14، ص 32.
- الطيب، الشيخ محمد علي (2000). الأرجوزة منشورة في موقع الألوكة الإلكتروني.
- دفع الله، الفكي وقيع الله (2009) . ديوان شعر، تحقيق وشرح عبدالرحمن ودالكبيدة، ط1، مطبعة البشي، الخرطوم، ص7.
- الطوسي، أبو نصر عبدالله بن علي (1960) . اللمع، ط1، دار الكتب الحديثة، مصر،ص 48.

- سليمان، عثمان مصطفى (2004). الخصائص اللحنية للدوبيت، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، الخرطوم، ص 15.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن (2007). الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية ، بيروت، ص183.
- كعب بن زهير (1989). الديوان، تحقيق: د. مفيد قميحة ، ط1، دار الشواف، الرياض، ص 76.
- الكيلاني، جمال (2014). جغرافية الباز الأشهب، المنظمة المغربية للثقافة والعلوم، ص122.
- ظهير، إحسان إلهي (1986). التصوف المنشأ والمصادر، ط1، لاهور، ص91.
- مجمع اللغة العربية (2003). المعجم الوسيط ، ط2، مكتبة الإيمان، القاهرة، ص 234.
- المقري، أحمد بن محمد (1988). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، ج 4، ص 468.
- الهروي، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد(د.ت) . منازل السائرين، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، ص88 .
- هيجل، جورج فيلهلم (2023). ملحمة العقل، مؤسسة هنداوي للنشر، المملكة المتحدة، ص 19.
- ود يونس، الشيخ عبد الله العركي (1994). قصيدة جمال الرسول(ص)، الدويم، أداء أنور شريف، حولية شيخ الحاج بابكر.
- ود ضيف الله، محمد النور(1992). الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء، تحقيق د. يوسف فضل حسن، ط4، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم.
- ود قرشي، الشيخ الحسن (2001). ديوانه، مكتبة نور، المملكة المتحدة، ص 21.